محمد محمود محمدين
كلية التربية جامعة الرياض

بصمات البيئة الجغرافية في لغتنا الجميلة

لغتنا العربية مجال رحب فسيح يسع الباحثين على اختلاف علومهم وفنونهم ، وهي بحر من يحسن الغوص فيه يخرج بانفس الدر • ومن سبل الدراسة في اللغة أن يرجع الانسان الى المعاجم اللغوية القديمة ، تلك المعاجم التي ينفر منها البعض حينما يطالع في صفحاتها كلمات لم يرها أو يسمع بها من قبل فيحسب نفسه أمام مقبرة جماعية تضم آلافا من الكلمات التي هجرتها الالسن فاصبحت مجرد مداد أسود مسجى في السطور •

لقد أحصى بعض الباحثين كلمات اللغة العربية ومفرداتها فوجدها مائة ألف كلمة مستقلة ، ولو (فعللنا) طاقات حروفها لامكن أن يتالف منها ١٢ مليونا من الكلمات على حد قول الخليل بن أحمد ، على أن مايستخدم من كلمات لغتنا العربية لايجاوز ثمانين الف كلمة (١)

(١) ابراهيم أنيس (دلالة الالفاظ) القاهرة ، ١٩٦٣ م ص ٧٧ •

لقد آن للباحثين العرب على اختلاف علومهم أن يبدأوا عهدا جديدا في دراسة اللغة التي تمثل أرقى نتاج الفكر الانساني ، ألا وهو عهد (الحفريات المعجمية) . ان نظرة في احدى صفحات معاجمنا العربية لاتقل أهمية عن التنقيب في باطن الارض والعثـور على لفظ وتحليله وتعليل وجوده لايقل شانا عن العثور على طابع لقـــدم حيوان منقرض .

وحينما نجد (للأسد) ثلاثمائة وخمسين اسما (٢) وصفه في اللغة العربية في بطون معاجم لغتنا بينما لايوجد شبل واحد حر طليق في شبه الجزيرة العربية الآن ، الا يدل ذلك على أن الأسد كان يعيش في منطقة شبه الجزيرة العربية وقـــد انقرض الآن ! .

ان وجود اسم وصفات الاسد بهذه الكثرة يعد نوعا جديدا من الحفريـــات (اللفظية) التي لاتقل في قيمتها عن العثور على (ناب) او (عظمة ساق) لأسد في طبقة من طبقات الارض تتخذ دليلا على وجود الاسد في تلك المنطقة .

وفي مقالنا هذا نتناول اللغة العربية من حيث الاصل ومكان النشاة ثم نرى الى اي حد تأثرت بالبيئة الجغرافية التي نشات فيها ونمت في أحضانها .

أصل اللغة العربية :

يقسم علماء اللغة المعاصرون اللغات المختلفة الى أسرات أو مجموعات تبعـــا لما لاحظوا بينها من تقارب وتشابه . من هذه الاسرات : أسرة اللغات الساميـة التي تنتمي اليها لغتنا العربية، ويطلق على أولئك الذين يتحدثون هذه اللغات اسم الساميين، ولفظ الساميين نسبة الى سام الذي ورد ذكره في الاصحاح العاشر من سفر التكوين في التوراة ، وهو اصحاح يسجل الصلات والعلاقات بين الشعوب المختلفة من صـــورة أنساب تنحدر من أبناء نوح .

---

(٢) جرجي زيدان (اللغة كائن حي) طبعة الهلال ، ص ٥٩ . وقد جاء في (المزهر) للسيـوطي ، طبعة دار احياء الكتب ص ٣٢٥ أن للاسد مائة وخمسين اسما وصفة في العربية .

ولقد توصل ابن حزم (٣) في القرن الحادي عشر الميلادي الى هذه الحقيقة ، وأن اللغات أسر كالبشر حينما قال : ان الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير ، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش (احتكاك) · ويرى اسرائيل ولفنسون (٤) (أبو ذؤيب) أن أول من تنبه الى العلاقة بين الامم السامية هم علماء اليهود الذين كانوا في الاندلس في القرون الوسطى ·

ولعل أول من أطلق اسم الشعوب السامية هو العلامة شلوتزر August Ludwig Schlozer سنة ١٧٨١ وشاركه في تسمية لغات هذه الشعوب باللغات السامية ايكهورن Eichhirn في أواخر القرن ١٨ ·

ويرى علماء اللغات أن اللغات السامية (٥) تفرعت عن لغة أم يطلق عليها بالالمانية Ursemitisch على ان البحث مازال مستمرا لمعرفة أقرب اللغات السامية الى اللغة السامية الأم تلك التي تحدث بها (سام) مع أبيه (نوح) ·

ويقسم العلماء اللغات السامية جغرافيا الى قسمين : شمالي ، وجنوبي ، أما الشمالي فينقسم الى شعبتين :

شرقية وتشتمل على اللغة الاكدية بقسميها (البابلية والأشورية) ·

وغربية وتشتمل على اللغة الاجريتية والفينيقية والعبرية والارامية ·

وأما القسم الجنوبي فيضم اللغة العربية واليمنية القديمة والحبشية ·

وتتشابه اللغات السامية في خصائصها فتتميز معظم هذه اللغات بأن الحركات لاتكتب فيها ، كما أنها غنية بكثرة الحروف الصامتة · وتتشابه اللغات السامية كذلك في الاصوات الى حد كبير كما تشترك في عدد كبير من المفردات الاساسية ، ومن الالفاظ الاساسية الاولية المشتركة في كل اللغات السامية الكلمات

---

(٣) سعيد الافغاني ، نظرات في اللغة عند ابن حزم ، سنة ١٩٦٣ ، ص ١٩ ·

(٤) اسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ، ص ٣ ·

(٥) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ ·

الدالة على أفراد الاسرة : أب ، أم ، أخ ، أخت والكلمات الدالة على أعضاء الجسـم مثل : عين ، أنف ، الرجل ، اليد ، الرأس .

وهناك أمثلة أخرى عديدة مثل أسماء الحيوانات ، وأسماء بعض الغـلات الزراعيـة .

اين نشات السامية الأصليـة ؟

لما تبين العلماء تلك الصلة والقرابة الظاهرة بين جميع اللغـات السـامية استنتجوا بأن جميع هذه اللغات ترجع الى أصل واحد ، وأن هذا الاصل اللغـوي المشترك كان منتشرا في منطقة واسعة الاطراف ، ثم نجمت من هذا الاصل لهجـات مختلفة وانتشرت في بلاد شتى ، وهاجر بعضها من مهده الاصلي ، ثم بدأت تأثيرات البيئة في السنة المهاجرين فأخذت المخالفة تبرز وتنمو حتى أصبحت تلك اللهجـات مغايرة للاصل تماما وأضحت وكان كلا منها لغة مستقلة ..

على أننا اذا أخذنا بصحة الاصل الواحد للغات السامية فأين كان موطن أو مهد السامية الأصلية ؟

الحق يقال ان هذا الامر مشكلة دقيقة لم تحسم ولم يستقر الرأي فيها عـلى مكان يرضاه الجميـع ، وان اتفقت هذه الآراء المتنازعة على أن مهـد الساميين الاول هو مكان ما بالشرق الاوسط . لقد بذل العلماء جهدا كبيرا لكنهم لم يتفقـوا بل تشعبت آراؤهم واختلفت أقوالهم وتباينت وجهات نظرهم الا أنها تركزت حـول نظريات خمس كمهد للساميين : (٦)

الاولى : ان الساميين ظهروا في شبه الجزيرة العربية .

الثانية : شمال أفريقيـا .

الثالثة : شمال سوريا .

الرابعة : جنوب العراق .

الخامسة : جزر البحر المتوسط .

---

(٦) نسيب وهيبة الخازن ، من الساميين الى العرب ، بيروت سنة ١٩٦٢ ، ص ١٠

وللتوراة نظرية خاصة عن أقدم ناحية عمرها بنو نوح وهي أرض بابل ، وقد أيد العالم جويدي (٧) Guidi هذه النظرية في رسالة يقول فيها : ان المهد الاصلي للامم السامية كان جنوب العراق على نهر الفرات • ويحاول جويدي أن يؤيد رأيه هذا بقوله ان أغلب الكلمات التي تدل على السهول والمياه والنبات مشتركة بين اللغات السامية مما يدل على أن هذه اللغات نبتت في مناطق سهلية غزيرة المياه وكثيفة النباتات ، وارتأى أن تلك المنطقة لا بد وأن تكون العراق فهي بذلك مهد الساميين والسامية ••

لكن الاعتراض الذي يستطيع أي فرد أن يوجهه الى رأي هذا المستشرق الايطالي هو أن الظروف السائدة الآن من جفاف أو أمطار لم تكن بنفس الصورة الحالية يوم أن نشأت السامية ، ولو فرضنا جدلا أن الظروف الحالية كانت سائدة فلماذا يترك الانسان العراق الخصيب بمياهه ونباتاته ويهاجر الى أعماق شبه الجزيرة العربية بأحقافها ونفودها وجفافها !

أما آرنست رينان Ernest Renan وبروكلمان Brockelmann فيرجحان أن الموطن الاول للساميين هو القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية •

ويرى سبرنجر Sprenger أن أواسط الجزيرة العربية ، ولاسيما منطقة نجد هي المكان الذي يجب أن يكون فيه موطن الساميين ، والمخزن الذي مون العالم بأبناء سام •

أما بالنسبة للكيفية التي انتشرت بها اللغات السامية فقد بدت لبعض علمائها فكرة (٨) مؤداها أن الجزيرة العربية كانت في حقب متعاقبة تبلغ الواحدة منها ألف سنة تقريبا تزدحم بالسكان كخزان هائل ضاق بمن فيه فلم يجد محيصا عن افاضة مايزيد على سعته وتصريفه عن طريق الهجرات المتعاقبة التي عرفت بالموجات •

---

(٧) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد سنة ١٩٦٨ ص ٩•

(٨) مصطفى مراد الدباغ ، جزيرة العرب ، الجزء الاول ، بيروت سنة ١٩٦٣ ص ١٣٨•

ويرى البعض أن اللغة العربية هي أنسب اللغات السامية الباقية للدراسة وللبحث لأنها لم تختلط كثيرا باللغات الاخرى وبقيت في مواطنها المعزولة في شبه الجزيـرة العربية صافية الى حد كبير ، ولم تتعرض لمثل ماتعرضت له اللغات الاخرى • ويرى العلامة السهوزن (٩) Olshausen أن العربية أقدم اللغات السامية ، الا أن هـذا الرأي يجد معارضة لايستهان بها •

ولم يكن انتشار العربية وسيادتها في وطننا العربي أمرا سهل الارتياد ، بل انها خاضت صراعات طويلة ، تحالفت أول الامر مع شقيقاتها الساميات للقضاء على بعض اللغات الحامية القديمة ، ثم قضت على الاكادية (١٠) في بداية القرن الرابـع ق•م ، وتغلبت على الفينيقية في القرن الأول • ولم تتمكن من القضاء على اللغـات اليمنية القديمة الا قبيل الاسلام •

أما الآرامية فقد كانت خصما عنيدا ظل صامدا أمدا طويلا ، اذ أن الآراميين كانوا ينادون بشرف لغتهم ، وأنها كانت لغة السيد المسيح وأمه ، وعندما ضاقت العربية ذرعا بصمود الآرامية اقتحمت عليها معاقلها في الشرق والغرب وانتزعتهـا معقلا معقلا حتى هجرتها الالسنة حوالي القرن الثامن الميلادي ، ومازالت كلمـات سامية كثيرة من تلك اللغات المقهورة أسيرة في لغتنا العربية ومقيدة في معاجمنا •

من أين استمدت لغتنا العربية اسمها ؟

ان الاجابة التقليدية عن هذا السؤال هي أن المتحدثين بها هم العرب ، ولكن هذه الاجابة لاتكفي بل يستمر السؤال مطروحا بصيغة أخرى ومن أين اكتسب العرب اسمهـم ؟ •

لقد مضى على العرب أكثر من ثمانية وعشرين قرنا وهم معروفون بهذا الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم كما يطلقه عليهم الأخرون ، ولا يزال أصل التسميـة وتاريخ اطلاقها غير معروفين على وجه التحقيق الى اليوم !

يذكر المستشرقون (١١) الذين تتبعوا كلمة عرب في اللغات السامية أن أقدم

---

(٩) صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، بيروت سنة ١٩٦٢ ، ص ٣٧ •

(١٠) علي عبد الواحد ، علم اللغة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٧ •

(١١) جواد علي ، نفس المرجع السابق ص ١٦ وما بعدها •

نص وردت فيه لفظة عرب نص آشوري من أيام الملك (شلمنصر الثالث) ملك آشور في القرن التاسع قبل الميلاد ، وكان يقصد بعرب (بداوة وامارة ومشيخة تحكم في البادية المتاخمة للحدود الآشورية) ·

وقد وردت في كتابات البابليين جملة (ماتو أرابي Matu — A — Rabi

وتعني كلمة (ماتو) في البابلية (أرض) فيكون المعنى أرض عرب · وكان يقصد بذلك الارض التي تمتد من غرب نهر الفرات حتى تخوم الشام ·

وقد ورد ذكر (العرب) في الكتب اليونانية ، وأول من ذكرهم (أخيلوس) (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق·م) ثم تلاه هيرودوت الذي أطلق لفظة Arabea على بلاد العرب وشبه الجزيرة العربية وضم الى ذلك الاراضي الواقعة الى الشرق من النيل ·

وحينما نحاول التعرف على أصل كلمة (العرب) يصادفنا الكثير من التفسيرات هل التسمية من العرابة (١٢) بمعنى الجفاف أو الصحراء في لغة بعض الساميين الشماليين ؟ هل اشتق الاسم من الاعراب (١٣) وهو الابانة ؟

هل أطلق الاسم نسبة الى يعرب (١٤) بن قحطان الذي يقال عنه انه أول من أعرب في لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي ؟

هل اسم العرب نسبة الى (عربة) من أرض تهامة كما يقول ياقوت الحموي ؟ يقول ياقوت الحموي أن كل من سكن الجزيرة العربية ونطق بلسان أهلها فهم العرب ، سموا عربا باسم بلدهم العربات ·

وهناك رأي يقول (١٥) : لم تكن كلمة عرب أو عرب (بفتح العين والراء أو ضم العين وسكون الراء) تدل على مدلولها المتعارف عليه الآن بل كانت تطلق على نوع خاص من القبائل وهو النوع الذي يسكن البادية ، ذلك النوع المتنقل الذي لايستقر في مكان واحد بل يتبع مساقط الغيث ومنابت الاعشاب والكلأ ·

وهناك رواية تقول ان العرب سموا بهذا الاسم لأنهم نزلوا الى الغرب من منازل أمة غيرهم ، وأن هذه الامة كان حرف العين يحل فيها محل حرف (الغين) فأصبحت

(١٢) عباس محمود العقاد ، الثقافة العربية أسبق من الثقافة اليونانية والعبرية ص ١٠

(١٣) الشيخ أحمد رضا العاملي ، مولد اللغة (ص ٣٩) ·

(١٤) جواد على نفس المرجع السابق ، ص ١٥ ·

(١٥) اسرائيل والفنسون ، المرجع السابق ص ٣٩ ·

غرب هي عرب ، ومن ذلك (عرب) العبرانية أي أرض الغروب (١٦) • ومنها (عرب) أي قصد الغرب لأنهم ارتحلوا عن الوطن الاصلي غربا •

ويذكر (ولفنسون) أن كلمة عرب كانت مستعملة في العبرية القديمة لتدل على أهل (العربة) وهي الصحراء • ويذكر كذلك أن عرب من (عرب) بفتح الثلاثه ــ العبرانية بمعنى خلط (شعب ممزوج من نسل قحطان واسماعيل ومدين والكوشيين) •

وقال اسحق بن الفرج (اللسان) عربة باحة العرب ، وباحة دار أبي الفصاحة اسماعيـل •

بعد أن استعرضنا أصل العربية مهدا واسما ، يطيب لنا أن نلقي نظرة عـلى البيئة الجغرافية التي نمت في أحضانها العربية ثم نتتبع أثر تلك البيئة الجغرافية في اللغـة •

أثر البيئة الجغرافية في لغتنا العربية :

اللغة سمة بشرية ، وظاهرة اجتماعية لايرجع الفضل في ابتكارها الى فرد معين أو أفراد معينين ، وانما تدين بميلادها ووجودها للحياة الجماعية • ولما كانت اللغة مرتبطة بالحياة الاجتماعية التي تنشأ بدورها في مكان معين ، فان كثيرا من الظواهر اللغوية ترجع في أسبابها الى ظواهر جغرافية وتاريخية وجميع مظـاهر البيئة من خصـائص جغرافية ونشـاط للسكان وظروف اجتماعية تترك بصماتها واضـحة في لغـة القـوم •

ومن أجل ذلك نلمس فروقا واضحة ، ونرى اختلافات واضحـة بين مفردات اللغات تبعا لظروف بيئاتها المختلفة ، وتتعدد في كل لغة التعبيرات والمفـردات التي تصف مظاهر البيئة سواء أكانت منطقة حارة أو باردة ، منطقة سهلية أو جبليـة ، منطقة صحراوية أو منطقة رطبة •

ويستطيع الباحث أن يتعرف على البيئة الاصلية التي نشأت فيها أية لغة عـلى ضوء مفردات تلك اللغة ، فاذا كانت تلك المفردات غزيرة في ناحية من النواحي دل

(١٦) الشيخ احمد رضا العاملي ، نفس المرجع السابق ، ص ٣٩ •

ذلك على أهمية تلك الناحية في البيئة التي نشأت فيها تلك اللغة ، وان قلت المفردات أو انعدمت في جانب من الجوانب دل ذلك على أهمية هذا الجانب وهكذا ··

ولقد نشأت لغتنا العربية على الارجح في شبه الجزيرة العربية ، ولقد أصاب القدماء الذين أطلقوا عليها جزيرة العرب فهي وان أحيطت بالماء من شرقها وغربها وجنوبها فان بحار الرمال تحيطها من الشمال حيث تعرف بالنفود وهي قفار متسعة ذات رمال بيضاء تسفيها الرياح وتعبث بها فتجعلها كثبانا وتلالا ·

وتغطي شبه الجزيرة العربية مساحة تقرب من ربع مساحة أوروبا وتحتضنها ذراعان مائيان هما الخليج العربي شرقا والبحر الاحمر غربا وبين هاتين الذراعين تمتد السهول والتلال والرمال لمسافة الف ميل · أما امتدادها مابين الجنوب حيث تداعب مياه البحر العربي سواحلها الى الشمال عند أطراف الهلال الخصيب فيصل الى الفين ومائتي ميل ·

وأهم مانلاحظه على موقع شبه الجزيرة العربية هو عامل العزلة ، ولقد أثرت عزلة الجزيرة العربية تأثيرا بالغا في اللغة العربية اذ حفظتها من غزو الالفاظ الاعجمية الى حد ما ·

ويذهب الباحثون والمستشرقون وغيرهم الى أن اللغة العربية هي أقرب مجموعة اللغات السامية الى النقاوة ·

ولو تتبعنا الكلمات الاعجمية التي استوطنت اللغة العربية وتزيت بزيها لوجدناها نسبة ضئيلة تعكس أثر عزلة الجزيرة العربية ، ولقد تمكن الاب رفائيل نخلة اليسوعي في كتابه غرائب اللغة العربية من جمع ٢٥٠٣ كلمة قال انها تؤلف أكثر الالفاظ الدخيلة في العربية من مختلف اللغات الاعجمية ·· فلو فرضنا أن كلمات المعجم مائة ألف كلمة لكانت نسبة الاعجمية مجرد ٢ر٥٪ أما النسبة الباقية ٩٧ر٥٪ فتمثل العربية ·

ويتضح نقاء اللغة العربية اذا ماقورنت بالفرنسية · فلقد أكد باحث لغوي محدث (١٧) أنه بعد أن فحص معجما فرنسيا أشتمل على ٤٦٢٥ كلمة تبين له أن عدد الكلمات التي ترجع لأصل لاتيني هو ٢٠٢٨ كلمة أي بنسبة ٤٥٪ فقط من جملة عدد الكلمات ولا يخفى علينا أن اللاتينية هي المصدر الاصيل الذي اشتقت منه الفرنسية وأوضحت نتيجة الفحص كذلك أن ٩٢٥ كلمة من أصل يوناني ، ٦٠٤ من الالمانية ،

---

(١٧) ابراهيم أنيس (دلالة الالفاظ) القاهرة ١٩٦٣ م · ص ٧٧ ·

٢٨٥ من الايطالية ، ١٥٤ كلمة من الانجليزية ، ١٤٦ من العربية ، ١١٩ من الاسبانية ٩٦ من الكلتية ، والباقي من لغات أخرى مختلفة ، وهكذا تبدو اللغة الفرنسية وكأنها منتخب دولي من كلمات شعوب العالم اذ أن الكلمات الدخيلة تصل نسبتها الى ٥٥٪ أي تزيد على نسبة الاصل اللاتيني ·

ولقد أثر الموقع مرة أخرى في اللغة العربية وذلك بتحديد جيرانها ، فالفارسية تقع الى الشرق من الجزيرة العربية ، والآرامية على اختلاف لهجاتها تسود فلسطين وسوريا ، واللغة الحبشية ولغة بلاد العرب الجنوبية تجاوران العربية من الجنوب ·

واللغة العربية لاتشذ عن سائر اللغات الانسانية فهي جميعا تتبادل التأثر والتأثير وتصدر الكلمات والالفاظ وتستوردها متى تجاورت أو اتصلت ، واقتراض بعض اللغات من بعض ظاهرة بشرية وقانون اجتماعي انساني ·

ويقال بالاجمال أن العرب اقتبسوا من لغة الفرس أكثر مما اقتبسوا من سواها ولذلك رأينا بعض أئمة اللغة اذا أشكل عليه أصل بعض الالفاظ الاعجمية عددها فارسية (١٨) وترجع كثرة الاقتباس من اللغة الفارسية الى مجاورتها للجزيرة العربية وسهولة الاتصال · ومن أمثلة ماذكره صاحب المزهر من الالفاظ الفارسية (ابريق ـ بللور ـ كوز ـ فلفل ـ وماهية ـ وشيشه) ·

وقد دخلت العربية بعض الالفاظ الحبشية مثل المشكاة ، وبرهان (وتعني النور في الحبشة) ·· وتأثرت العربية كذلك بالآرامية التي كانت تجاور العربية من الشمال ومن الالفاظ الآرامية التي دخلت العربية (جهنم) وأصلها الآرامي : جيهنام ، وسكين ، وترعه ، بالوعة · ولقد كانت الآرامية وسيطا ساعد على دخول بعض الالفاظ اللاتينية الى العربية مثل الصراط (١٩) والقنطار والقنطرة ·· اذ أن هذه الالفاظ دخلت اليونانية ثم أخذتها الآرامية ونقلها العرب عن الآراميين ·

ومن آثار الموقع والعزلة تعدد اللهجات في اللغة العربية · واللهجة هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي الى بيئة خاصة ، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات وتلك البيئة الشاملة اصطلح على تسميتها باللغة ·

---

(١٨) جرجي زيدان (اللغة العربية) دار الهلال ص ٣٤ ·

(١٩) للتعرّف على مزيد من الالفاظ الدخيلة على العربية ، انظر مجلة المجمع اللغوي (المصري) جـ ٨ ، ص ١٦٥ ·

ولقد تكونت اللهجات في اللغةالعربية نتيجة الانعزال والانفصال وقلةالاحتكاك بين القبائل الرعوية التي لاتكاد تستقر فيؤدي ذلك الى تشعب اللغة الى مجاميع صغيرة من البيئات اللغوية ·

ولقد تميزت لهجة قريش وانفردت بخصائص أتاحت لها أن تحفظ شخصيتها وأن تسمو على سائر اللهجات ، فبعدها الذى وصفه ابن خلدون عن بلاد العجم من جميع جهاتها كان حاجزا طبيعيا حال دون كثرة اتصالها بالاجانب فلم يداخلها من لكنة الاعاجم ماداخل القبائل المتطرفة التي كانت على اتصال وثيق بمن حولها من غير العرب · ولقد أكد الفراء (٢٠) (يحيى بن زياد) صفاء لغة قريش وأوضح أسرار ذلك الصفاء بقوله (كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ ·

ولقد أثر الموقع مرة أخرى في نشاط سكان شبه الجزيرة العربية ، اذ أن موقع الحجاز بين الشام واليمن ، وكونه ممرا واستراحة للقوافل التي كانت تروح وتجيء بالبضائع بين الجنوب والشمال في الشتاء والصيف جعلهم يهتمون بالتجارة اهتماما بالغا · والتجارة بين الشرق والغرب ضرورة فرضها اختلاف المناخ بين أقطار الشرق الهندي والغرب الاوروبي ، وبالتالي اختلاف الغلات مما أدى الى حاجة كل منها الى منتجات الآخر كما قال الهمداني : (٢١) (لولا أن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان بشيء منعه غيرهم ، لبطلت التجارة وذهبت الصناعات ، ولما تغرب أحد ولا سافر ·· وذهب الشراء والبيع والاخذ والعطاء · الا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعا من الخيرات ومنع الآخرين ليسافر هذا الى بلد هذا ويستمتع قوم بأمتعة قوم ليعتدل القسم وينتظم التدبير) ·

لقد استثمر العرب موقع بلادهم الهام فاشتغل كثير منهم بالتجارة ، مارسوها رجالا ونساء ، خاصة الذين أشرفت بلادهم على طرق التجارة ، ولم يغال استرابو (٢٢) حين قال (العرب تجار وسماسرة ، وقوم تجارة وبيع وشراء)

---

(٢٠) صبحي الصالح ، نفس المرجع السابق ، ص ١١٢ ·

(٢١) سعيد الافغاني ، أسواق العرب ص ٢٨ ·

(٢٢) نفس المرجع السابق (ص ١٧)

اذ أن من لم يتاجر من العرب أفاد من التجارة بطريقة غير مباشرة ، فعمل دليلا للقوافل ، أو حارسا من الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم لحمايتها ٠

ولقد شغف العرب بالتجارة ، واستمر هذا الشغف حتى بعد ظهور الاسـلام ٠ وخير دليل على ولوع العرب بالتجارة (آية الجمعة) وما تحكيه ٠

ومن آثار التجارة في لغة العرب ، غنى هذه اللغة بألفاظ الاسفار ونزول الماء ووصف دواب السفر ، ويشهد على ذلك أن أكثر مطالع القصائد في الجاهلية وبداية الاسلام يبدأ الشاعر فيها بذكر رحلته ومالاقى فيها من العناء والشقاء ٠

ومن شعر العرب الذي يدعو للسفر ويحبب اليه قولهم :

فســـــر في بلاد الله والتمس الغنـــى

تعش ذا يســـــار أو تموت فتعذرا

ومن أمثلة العرب التي ترغب في السفر والطواف :

(كلب طواف خير من أسد رابض)

وكان من نتيجة اشتغال العرب بالتجارة مع من جاورهم ان دخلت لغتهم ألفاظ كثيرة معظمها أسماء للبضائع التي يجلبها التجار من بلاد فارس ، ويذكر الباحثون من هذه الكلمات الفارسية (الفيل ــ الجاموس ــ الديباج ــ الاستبرق) ومن الكلمات اليونانية (درهم ــ دكان ــ دينار ــ زبرجد ، فرصة ، فنـــدق ، قارب ــ كيس ــ لــص) ٠

ومما لاريب فيه أن اختلاط القوافل والتجار بالعرب قد أدى الى تسرب كثير من الكلمات الاعجمية الى اللغة العربية ٠

ونظرا لاهمية التجارة في حياة العرب فقد جاء الأسلوب القرآني مشوقا لهـم من هذه الناحية ، وقد ورد ذكر البيع والتجارة والشراء في القرآن الكريم نحو ٤٩ مرة ومن ذلك قوله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)

وحينما بدأ نظام الخلافة عند العرب لم يجدوا أنسب من لفظ (المبـــايعة) للدلالة على بذل الطاعة للخليفة ، وغير خاف عنـــا أن كلمة المبايعـــة من كلمات التجـــارة .

ولما كان الامن عاملا هاما في تشجيع التجارة وانتظامها ، جعل العرب أكبـــر أسواقهم في الاشهر الحرم وهي (رجب ـ ذو القعدة ـ ذو الحجة ـ المحـرم) وكـان أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام .. ولهذا أطلقت العرب على حروب قريش وهوازن في عكاظ (حروب الفجار) لفجورهم باقتتالهم في الشهر الحرام ، ولقد احترم معظم العرب قريش لمكانهم من الكعبة وكان العرب أرعى لحرمة الحرم منها لحرمة الشهر . وأحسن القرشيون استغلال هذه المكانة فضربوا في جزيرة العرب شمالا وجنوبا متاجرين في ظل الامن . وكانوا يسيطرون على أسـواق (عكاظ ، ومجنه وذو المجاز) وهي الأسواق الثلاث الكبرى .

وكان الناس يغشون الاسواق (٢٣) لمآرب شتى منها : الشراء والبيع ، والتفاخر وطلب الامن ، ولم يقل شأن الاختلاط في اللغة والدين والعادات عن النشاط التجاري ولقد ساعد أشراف قريش على سوق عكاظ (٢٤) أعواما طويلة على أن تكون لغتهـــا ولهجتها هي اللهجة الرسمية بين أطراف شبه الجزيرة العربية ، لأن القبائل تأتي اليها بشعرائها وخطبائها فتختار مايروق لها وما تصطفيه من ألفاظ وعبـــارات حتى استخلصت تلك اللغة الممتازة التي نزل بها القرآن الكريم .

ولعل أعظم آثار الاسواق قبل البعثة المحمدية هو هذا التوحيد اللغوي الذي قام على أساس انتقاء الالفاظ والاساليب .

أثر المنـــاخ في لغتنا العربية

أما بالنسبة لأثر المناخ في لغتنا العربية فقد كان كبير : ذلك لأن حياة البدوي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمطر والكلأ . ولئن كانت قلة الماء وشدة الحر ومشقة السفر

(٢٣) لانجد اتفاقا بين الباحثين على عدد هذه الاسواق ، فقد أورد الهمداني في كتابه صفة جزيـــرة العرب ص ١٧٩ نحو خمسين اسما ، ويذكر القلقشند ثمانية أسواق ، ويذكر الالوسي في بلوغ الارب أربع عشرة . وقد أورد سعيد الافغاني في كتابه أسواق العرب عشرين اسما .

(٢٤) قيل سميت عكاظ .. لان العرب كانت تجتمع فيعكظ بعضهم بعضا من المفاخرة أي يقهره ، ويقال (تعظ القوم) اذا اجتمعوا للمشاورة في أمورهم (سعيد الافغاني أسواق العرب ص ٢٨٩) .

صحاب وأعداء تآزرت على البدوي في أحواله العادية ، فانها في الوقت نفسه أحلاف له وأعوان تقوم بمناصرته وتجدته اذا ماتعرض لعدوان ، فلا عجب اذا رأينا البدوي يندر أن يطأطيء رأسه · ولقد ذكر هيبوقراط الاغريقي (٤٢٠ ق·م) في كتابه (الجو والماء والاقاليم) أن سكان السهول الجافة يتميزون بالنحافة وفيهم طبيعة السيادة والامارة وقد روى استرابو (٢٥) في جغرافيته نقلا عن مرجع يوناني أن العرب هم الامة الوحيدة التي لم تبعث سفراءها الى الاسكندر الاكبر ·

ولقد كانت ظروف المناخ مصدرا أوحى للانسان بعديد من الكلمات التي تعتبر بمثابة صدى لاصوات الطبيعة والتي غالبا مايطلق عليها أونوماتوبيا Onomatopoeia ومن أمثلة ذلك أزيز الريح وحفيف الورق ·

ولما كان العرب يكثرون بطبيعتهم وحاجتهم الى الغيث من التحديق في السماء ، فانهم قد أصبحوا بطول الملاحظة والتجريب يميزون بين الظواهر المناخية المختلفة التي ترتبط بسقوط الامطار · وقد أورد الثعالبي في (فقه اللغة) أكثر من أربعين اسما وصفة للرياح · وذكر جرجي زيدان (٢٦) أن للسحاب عند العرب مائة وخمسين اسما ، وللمطر أربعة وثمانين اسما · وأدى مناخ شبه الجزيرة العربية الصحراوي الجاف الى زيادة أهمية الماء والحاجة اليه ، وانعكس صدى ذلك في اللغة فاتسع تدريج التعبير عن العطش فأصبح تعبيرا (ترمومتريا) يتدرج كالآتي : العطش ـ الظمأ ـ الصدى ـ الغلة ـ اللهبة ـ الهيام ـ الاوام ـ والجواد وهو القاتل ·

وفي البيئة الجغرافية الجافة عبرت العربية في سعة لانظير لها عن مياه الآبار في أسماء بلغت جملتها كما ذكرها الثعالبي (٢٧) سبعة وثلاثين اسما وصفة كل اسم منها كأنه تعبير (شفري) يلخص حالة المياه كما ونوعا ، فمثلا (زلال) اذا جمع الماء الصفاء والعذوبة والبرد ، و (الغساق) ماء البئر البارد المنتن ·

وبالنسبة لعمق الآبار وكمية مائها فقد ورد أكثر من عشرين اسما وصفة منها (الظنون) وهي البئر التي لايدري أفيها ماء أم لا ، و (المكول) القليلة الماء ·

(٢٥) ، (٢٦) جرجي زيدان (اللغة كائن حي) ص ٥٩ ·

(٢٧) أبو منصور الثعالبي (فقه اللغة) ص ٥٤ ، ٥٥ ·

ومن الكنايات والاستعارات التي أوحت بها ظروف المناخ قولنا (أظللني بعطفه) و (أثلج صدري) وبالطبع لانجد مثيلا لهذه التعبيرات في البيئات الباردة ·

أثر النبات والحيوان :

النبات الطبيعي انعكاس صادق وأمين لظروف المناخ ، وتعتبر النخلة ملكة عالم النبات في الجزيرة العربية على حد قول بعض المؤرخين ، وقد ذكر مؤرخو العرب أن في المدينة وما حولها مائة صنف من البلح · والعطاء النباتي في شبه الجزيرة العربية عموما فقير وقد انعكس ذلك على حيوانات الرعي بحيث أصبح الجمل أكثر الحيوانات ملاءمة لهذه البيئة الجغرافية · ويعد الجمل أنفع الحيوانات للبدوي ، منه يأخذ الغذاء والكساء ، وعليه يتنقل في الصحراء ، ومن روثه يتخذ البدوي وقوده ومن بوله الدواء ، وهو العملة الصعبة التي لاتنخفض قيمتها على الدوام ، ويفضل جميع البدو التعامل بها فيقبلونها مهرا لعروس أو دية لمصاب ·

والناقة أم حنون للبدوي ترضعه لبنها طوال حياته ، مهما بلغ عمره لاتفطمه أبدا كما تفعل أمه التي حملته بين أحشائها · وليس من الغريب أن يدهش رينان Renan الفرنسي أحد الباحثين البارزين في اللغات السامية ، حينما ينقل عن الاستاذ دي هامر De hammer أنه توصل الى جمع أكثر من ٥٦٤٤ لفظا يتعلق بشئون الجمل رفيق الاعرابي في الصحراء · وتضم المعاجم العربية نحو الف اسم وصفة للجمل ، الذي لعب دورا لغويا هاما في حياة اللغة العربية فهو الذي سهل نشرها ليتحدث بها أكثر من مائة وعشرين مليونا ·

ولما كانت الابل هي أهم مايملك العربي من ثروة فمن الطبيعي أن يكون لأسمائها وصفاتها أثر كبير في لغتنا · ولقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لايفلح العربي الا حيث يفلح الجمل) · وتبدو آثار الجمل واضحة في لغتنا العربية وان ابتعدت كثيرا عن ذلك الحيوان الصحراوي ، تماما كالصوف الذي ينزعه الانسان من فوق أجسام الاغنام ليصنع منه حلة أو معطفا يتباهى به · ومن الالفاظ التي ترجع في أصلها الى الابل (الاناقة) (٢٨) اشتق هذا اللفظ من الناقة ولقد انتقل المعنى من تلك البهيمة الصحراوية الى المدنية المترفة ، وقد مرت هذه الكلمة بتطور على هذا النحو (نوقت البعير) بمعنى ذللته وجعلته مطواعا ، ثم تلا ذلك (نوقت

---

(٢٨) عبد الحق فاضل ، مغامرات لغوية ص ٥٩ ، ٦١ ·

الشيء) أي صفقته وهندمته ، وهكذا عرفت الناقة البدوية سبيلها فتسللت الى صميم الحضارة المعاصرة ·

أما البعير أو الجمل فقد غزا اللغة العربية بألفاظ كثيرة اشتقت من اسمه مثل (الجميل) و (التجميل) و (المجاملة) ويرجع ذلك لتقدير البدوي لفضيلة الصبر عند الجمل ، وكان (التجمل) أي (التصبر) من الشيم المستحقة في المثالية العربية ··

وهكذا تسلل الجمل مع قرينته وشريكة بيدائه ورفيقة دربه وأسفاره ، عقيلته الناقة الى حياتنا العصرية ! وحينما يقول أحدنا (يحدوني الامل) فانه لايفكر في أصل هذه الكلمة التي اشتقت من (الحداء) وهو غناء الراعي (للجمال حين يستحثها على السير) ·

ومن الاربطة البهيمية اشتقت أسمى كلمات يعتز بها ويفاخر بها العربي المثقف ، ألا وهي (العقل والكتابة والحكمة) فالعقل هو الربط ، والحكمة جزء من لجام الفرس ، أما (الكتابة) فهي تقييد الابل بحيث تكون اليدان مع التكفين وهكذا استخدم الانسان الكتابة لتسجيل أفكاره حتى لاتضيع ·

ولم تقف الكلمات والالفاظ التي اشتقت من الابل عند حدود وطننا العربي ، بل هاجر بعضها آلاف الاميال وأصبح عالميا تداولته ألسنة أقوام لا يعرفون الابل ولم يروها طوال حياتهم ومن قبيل الالفاظ كلمة (المناخ) ·

و (المناخ) بضم الميم هو مبرك الابل باجماع المعاجم اللغوية العربية (٢٩) ، وهو اسم للمكان الذي تناخ فيه الابل ·

وقد وردت كلمة (مناخ) بالفتح في تاج العروس للمكان غير المرضي ··· (هذا مناخ سوء) ويسود بين بعض الجغرافيين في الجامعات العربية أن (المناخ) بفتح الميم هو مبرك الابل ، أما (المناخ) بضم الميم فهو حالة الجو من حرارة ورياح وأمطار · وهذا يتنافى مع الحقيقة ومع أصل اشتقاق الكلمة ·

---

(٢٩) أ · الزبيدي (تاج العروس) ص ٢٨٤ ·
ب · الشيخ أحمد رضا (معجم متن اللغة) ص ٥٧٠
ج · ابن منظور (لسان العرب) المجلد الثالث ص ٦٠
د · محمد فريد وجدي (دائرة معارف القرن العشرين) المجلد العاشر ص ٣٨٢ ·

ويرى كاتب هذا المقال أن لفظ (المناخ) بضم الميم قد تطور معناه وأصبح يدل على المكان أول الامر أو المنزل الذي ينزل فيه البدوي ، وفي الحديث الشريف (منى مناخ منى منزل) ولما كان المطر والرطوبة والحرارة والبرودة عناصر ذات أهمية كبيرة في حياة البدوي وكانت أساس المفاضلة بين الاماكن التى تناخ فيها الابل . فان العربي كان يقول (مناخنا مطير) أو (مناخنا رطب) أو «مناخنا حار أو بارد» أي أن مكان الاقامة مطير أو رطب أو حار حسب ماورد في الامثلة ومن هنا عممت الكلمة وأصبحت تشير الى حالة الجو بصفة خاصة وهي أهم مايهتم البدوي به ، وانطبع ذلك أيضا في المعاجم حيث قيل عن (المناخ) كل مكان تقيم فيه ينفعك أو يؤذيك هواؤه فانظر كيف اهتمت المعاجم بالهواء !

أما (المناخ) بالفتح فقد ورد ذكرها في (تاج العروس) كما ذكرت للتعبير عن حالة واحدة لاتتغير وهي (مكان سوء) ومن هنا فلا تصلح للتعبير عن حالة الجو المتغيرة .

ولقد هاجرت كلمة (المناخ) الى اللغات العالمية رحرفت الى Almanac وأصبحت بمعنى التقويم السنوي الذي يشير الى الاحوال المناخية والتنبؤات الفلكية وأحوال المد والجزر وقد أشارت القواميس الاجنبية (٣٠) الى أصل الكلمة العربي .

يبدو لنا من هذا العرض أن اللغة لاتقل عن أي كائن حي في تأثرها بظروف البيئة الجغرافية .. فلقد تأثرت بالموقع والمناخ والنبات والحيوان بل ولقد هاجرت كما هاجر بنو البشر واستقرت بعض كلماتها المغتربات في بيئات تبعد آلاف الاميال عن مواطنها الاصلية .

محمد محمود أحمد محمدين

(30) Britannica World languaye dictionary, Chicago, 1959 , P. 41.

المصادر

١ ـ ابراهيم أنيس — دلالة الالفاظ ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٢ ـ ابن منظور — لسان العرب ، المجلد الثالث .

٣ ـ أبو منصور الثعالبي — فقه اللغة .

٤ ـ أحمد رضا العاملي — مولد اللغة .

٥ ـ أحمد رضا العاملي — معجم متن اللغة .

٦ ـ اسرائيل ولفنسون — تاريخ اللغات السامية ، القاهرة ، ١٩٢٩ م .

٧ ـ الزبيدي — تاج العروس .

٨ ـ جرجي زيدان — اللغة العربية .

٩ ـ جرجي زيدان — اللغة كائن حي .

١٠ ـ جواد علي — المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الاول .

١١ ـ سعيد الافغاني — نظرات في اللغة عند ابن حزم ، ١٩٦٣ م .

١٢ ـ سعيد الافغاني — أسواق العرب .

١٣ ـ صالح أحمد العلي — محاضرات من تاريخ العرب ، بغداد ١٩٦٨ م

١٤ ـ صبحي الصالح — دراسات في فقه اللغة ، بيروت ، ١٩٦٢ م

١٥ ـ عباس محمود العقاد — الثقافة العربية أسبق من الثقافة اليونانية والعبرية .

١٦ ـ عبد الحق فاضل — مغامرات لغوية .

١٧ ـ محمد فريد وجدي — (دائرة معارف القرن العشرين) المجلد العاشر .

١٨ ـ مصطفى مرا دالدباغ — جزيرة العرب ، ح ١ بيروت ١٩٦٣ .

١٩ ـ نسيب وهيبة الخازن — من الساميين الى العرب ، بيروت ، ١٩٦٢